



## نيتشه والصدقة ويلاو فيركرك

مُحمَّد الشيخ \*

يؤثر عن الحكيم اليوناني أرسطو أنه كان يقول: «أيها الأصدقاء، لا يوجد أصدقاء!»، ويؤثر عن الحكيم الألماني نيتشه أنه كان يرد عليه، بعد انصرام اثنين وعشرين قرناً ونيف، بالقول: «أيها الأعداء، لا يوجد أعداء»، وما جعل القول الأول من أرسطو منكراً للصدقة بإطلاق، لا ولا جعل القول الثاني من نيتشه منكراً للعداوة بإطلاق، بل جعل منهما مثبتين للصدقة والعداوة - الواقعتين - معا بنسبة منكرين لهما بنسبة. على أن لا هذا ولا ذاك شهد ما يشهد عليه زماننا هذا بدون نمط جديد من الصدقة هو «الصدقة الافتراضية» التي تعقد بضغط على زر «أقبل»، وتحل بضغط على زر «أرفض» في جهاز الحاسوب! والحال أن مفكري الصدقة، عبر تاريخ الفكر البشري، من الكثرة بمكان: من أرسطو إلى دريدا، مروراً بفيلوخرسيس وشيشرون وابن الخمار والتوحيدي ومونتيني وغيرهم عدد. لكن، ما أكثر المفكرين في الصدقة، وما أقل المتميزين فيهم!

إلى تجاوز نفسه. إذ ليس من الصدقة في شيء، مما أدى إلى منزلقين قد تنزلق إليهما صداقة فاشلة: قمع المرء في نفسه تطوره الذاتي، وكبحه في ذاته تطوره من حيث هو مفكر حر. إنما الصدقة الحقبة. الصدقة التنازعية. تلك التي نعثر على توصيف لها في أعمال نيتشه المتوسطة، حيث تقترن الصدقة بالبهجة. هي ذي الصدقة العلاجية الاستشفائية -التطبيبية/التطبيبية- التي تكسب المرء صحة نفسية. إذ من أهم مزايا الصدقة أنها تشفي، كما تجعل إحساس الإنسان الفكري قادراً على تحمل الصيرورة، وتنقل الإنسان من حال الإنسان الأخير. العدمي. إلى حال الإنسان الأعلى الذي تجاوز العدمية.

### الفصل الثالث:

في صيرورة المرء نفسه (صر ما أنت إياه): نيتشه ومفهومه العلاجي للذات  
هذا الفصل دائر على مفهوم «الذات» عند نيتشه، وعلى ما يعنيه تحويل الذات. ولتشكل الذات عند نيتشه، أساساً، روافد ثلاثة: حياة بيولوجية، وتربية مجتمع، وإرادة قوة. فأنى لهذه العوامل المتناقضة المتداخلة أن تجعل الذات تعي صيرورتها؟ الذي عند نيتشه -وفي صلة بموضوع الصدقة- شأن «تصوير الذات» شأن تشاركي: لا تتغير الذات إلا في شركة بالغير. ذلك أن أحد غايات الصدقة، بمعناها الأسمى، ما يعين النفس على تجاوز نفسها. وترد المؤلفة على من يدعي أن نيتشه قد آمن بالحمية البيولوجية والاجتماعية والوجودية، بأن الإقرار بعوامل تشكيل الذات هذه لا يمنع أن تبقى هذه العوامل ذات هدف مفتوح، وهي تؤهل النفس إلى انبساط، بحيث تسهم القوى الخارجية والداخلية معا في وعي المرء بنفسه. مما يقدرنا على فهم كيف أن نيتشه اعتبر أن الصدقة يمكن أن تغير الذات، وبشيء يفهم للذات يتوافق مع تصور نيتشه العلاجي والاستشفائي للصدقة.

### الفصل الرابع

نيتشه وأرسطو: في الطبع والفضيلة وحدود الصدقة  
تقف المؤلفة في هذا الفصل على الجوامع والفوارق في تصور

2- من وجه فلسفي محض: أي توصيف وضعه نيتشه للصدقة؟ وأي نوع هو الأفضل عنده؟ وما مساهمة وقيمة آراء نيتشه بالقياس إلى أنظار أعياره من فلاسفة الصدقة ومفكرها؟

هذا وقد انقسم الكتاب إلى مدخل وستة فصول:

### الفصل الأول:

عطاء نيتشه الأدبي في الصدقة: قراءة نيتشه بحسبانه صديقاً مرحاً نزوعاً سخياً  
ترسم المؤلف هنا ما يشبه خريطة طريقة في غابة قراءات نيتشه، ماسكة بالخيط الناظم لقراءته باعتباره مفكراً استشفائياً أنشأ «أخلاقية صداقة» لكي يعلم إياها قراؤه المصطفين. وتقوم دعوى هذا الفصل على فكرة أن نيتشه مفكر نفساني استعمل منهجه الجنياولوجي بغاية بناء مروية عن الصدقة تحثي بوجهها: المنازعة والبهجة. وقد توجه نيتشه بخطابه إلى «فلاسفة المستقبل» الذين تحرروا من إرث الماضي، حتى أمكنهم مساءلة أنفسهم في كل مجالات حياتهم. وهنا تصير الصدقة منهجاً نحو تجاوز الذات والعلو عليها. وقد ركزت المؤلفة هنا على نصوص الطورين المتوسط والمتأخر من أطوار فكر نيتشه. ترى ما الذي كانه نيتشه هنا؟ وأي نوع كان من الكتاب؟ والجواب الذي يأتي: هنا نيتشه هو الصوت التنازعي، الذي يناضل ضد القارئ، في مقاربة نفسانية للفلسفة. هو منشئ أخلاقية صداقة تنازعية، حيث يطفح ثمة فيض قوة وفضل طاقة يستخدم التناظر والجدل كي يدفع القارئ إلى تجاوز نفسه، ويخرجه من قوقعته، ويقذف به إلى بحر خضم. يخرج نحو الصدقة بحسبانه الفرحة والبهجة والسخاوة.

### الفصل الثاني:

إعادة تقويم نيتشه للصدقة

مدار هذا الفصل على فحص السجايا التي يقر نيتشه بوجودها في فضيلة «الصدقة». ويركز على نصوص نيتشه المنذورة إلى غاية الصدقة. ويبرز كيف أن البغية من الصدقة إحياء الشعور الفكري بشغف البحث عن المعرفة ودعوة المرء

وصاحبة هذا الكتاب -الفيلسوف النسائية الكندية التي درست الفلسفة بأوروبا (لندن وباريس) وبالولايات المتحدة وكندا ويلاو فيركرك- تدعي أن نيتشه كان «متميزاً» في تفكيره في موضوع «الصدقة». وتنطلق في تفكيكها لهذا المفهوم عند نيتشه من حديث الرجل عن «الحاجة إلى الصديق» -تلك الحاجة التي يعبر عنها بالقول: نحن نحتاج إلى الصديق حتى نتحمل الحياة، ونخبر أفرحها بملئها، ونعلي من شأن قدرتنا على التعلم منها. بما يشي عن أن الصدقة «صناعة أدوية» علاجية: فمن شأنها أن توفر لنا الراحة من العذاب، وأن تدفعنا إلى أن نتجاوز أنفسنا، وأن تُقدرنا على أن نتحمل قدرتنا على الإبداع الفردية والجماعية. وهذا يعني أن نيتشه فكر في موضوع «الصدقة» في زمن اجتياح العدمية للعالم بأثر من حركة الحداثة العاتية، وما رافقها من ضمور الحس الديني، ومن فلسفة «هز الكتف» التي لسان حالها يقول: انهارت القيم. فليكن، المهم أن نبعد قيماً جديدة نتجاوز بها مزاج عصرنا العدمي الخنوع الخمول.

والحق أنه عادة ما تم اعتبار فكر نيتشه، من جهة نظر شائعة، أنه فيلسوف فرداني، مؤثر للوحدة وللعزلة، بجانب للخلطة وللرفقة، وما تم النظر إلى فكره من جهة نظر «أخلاقيات الصدقة». وهي جهة النظر التي جعلت فيها ويلاو فيركرك وكدها، فسعت إلى أن تبدي وجه نيتشه الخفي هذا. ذلك أن الرجل، ولا سيما في مرحلة فكره الوسطي، كان شديد الاهتمام بصداقة مرحة، وبصحبته منازعة، وبرفقة سخاوة؛ بحيث يسخو الصديق على صديقه من فائض قوته وتدفق عطائه. وتلك علمناها أوجه الصدقة الثلاثة عند نيتشه: صداقة التفراح والتباهج، وصداقة التناقص والتزاحم، وصداقة التعاطي والتساخي. وقد انتدبت صاحبة الكتاب نفسها لفحص هذه الأنماط الثلاثة من الصدقة، وذلك من وجهين:

1- من وجه تطور فكر نيتشه تاريخياً: هل، يا ترى، تغيرت هذه أوجه الصدقة الثلاثة هذه عنده بتغيرت حسب أطوار تقلب فيها فكره (متقدم ومتوسط ومتأخر)، أم أنها بالصدد تداخلت وتمازجت؟



أثر فيه وفي محاولات دريدا التجديدية لوجه المرأة. وتختتم المؤلفة كتابها بذكر أن هدم نيتشه - وهو الذي نذر حياته لكي يُطَبَّ للحضارة ويشفي منها مرض العدمية، ويوقظ فيها العقل الحر والوعي الفكري والصدقة التنازعية كوسائل للاستشفاء والتغيير. لأسس عقائد الثنائيات الميتافيزيقية التقليدية القائمة على المعارضة بين القيم: الخير/الشر، الحق/الباطل، الرجل/المرأة... إنما شمل أيضا ثنائية الصديق/العدو. وقد ربط الرجل بين الصداقة والعداوة لا لكي ينكر إمكانية الصداقة، بقدر ما لكي يتحدى تماميتها المفهومية ويفتحها على تنوعاتها. إذ لا ننسى أن الرجل، على الرغم من ذكوريته الطافحة، ذكر أن الرجال هم المسؤولون على صورة المرأة، وأنهم هم من يتحفظ على صداقة المرأة، كما لا ننسى أن صداقة نيتشه تبقى أشبه شيء يكون بحديقة أبيقورية تأتيناها كل العقول الحرة بصرف النظر عن النوع والعرق والطبقة، وإنما بتوافق قيم عقل حر وصداقة مرحة تقوم على اللعب والتعاطف والراحة باعتبارها أساس تجربة الصداقة. وتنوعات الصداقة هذه إنما ترتبط بمشروع نيتشه لتجاوز الذات نفسها. وقد كان أملة معقودا على قراء المستقبل الذين هم بمثابة أصدقاء له للاحقين وورثة فكره الذي سوف يمكن من إحداث تغيير ثقافي ومن بزوغ ضرب جديد من الصداقة عبر الازدهار المشترك.

وتختتم بالحديث عن محاولة نيتشه ترويج الصداقة بالعداوة وإعادة ابتداء الصداقة بوصفها ممارسة استشفائية تدعم تجاوز الذات بالشراكة مع الغير. والذي تراه المؤلفة، أننا ما زلنا نعيش لحد الآن عشية آخر إنسان كما تصوره نيتشه. لذلك، فإننا نحتاج إلى الصداقة التنازعية بوسمها علاجا من شأنه أن يخرج أرواحنا من خمولها.

وأخيرا، يتبين من عرض تاريخ مفهوم «الصداقة» في الفكر الغربي، وبشهادة دريدا نفسه، أنه كان مفهوما ذكوريا بالأولى. بدأ بأرسطو الذي عد صداقة المرء وزوجه أدنى الصداقات، وثُنَّ بمونتيني الذي تحدث عن عجز المرأة على أن تصادق، وثُلَّت بنيتشه الذي وصف الصداقة بصفات ذكورية: التنازع والتصالب. لكن أين نحن من قول أبي محمد التغمريني: «ولا ينبغي للمسلم أن يبقى بغير صديق يشفي إليه سره، ويشترك معه همومه. فإن لم يجده من الرجال، اتخذته من النساء، والعكس للنساء؟ بل أين نحن من العلامة أبي حسان الفرسطاني الذي كان كثيرا ما يمكث عند أم الربيع الوريورية، وكانت سخية ومأوى للأخيار، وربما أقام زمانا من الدهر، ويجعل للناس المجلس عندها؟

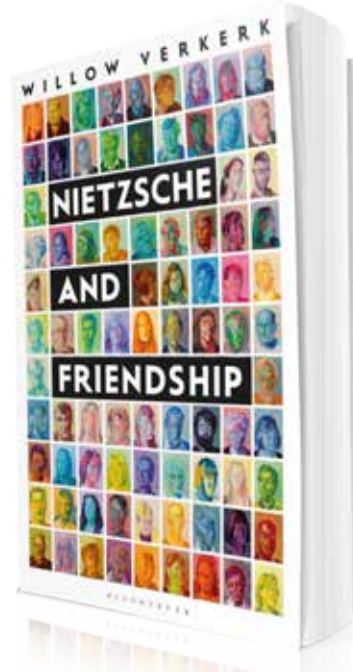
• الكتاب: نيتشه والصداقة.

• المؤلف: ويلو فيركرك.

• الناشر: بلومسبوري، 2019.

• عدد الصفحات: 190 صفحة.

\* أكاديمي مغربي



ثمرة النوازع؛ مما يفسر الفارق بين عشق الذكر وعشق الأنثى. ويرى نيتشه أن هذه الفوارق لا زالت قائمة لا انفضاض لها. مما يكشف، في رأي المؤلفة، عن محدودية فكر نيتشه في استكشاف طرق البحث في الحب والصداقة والهوية والجنس. وقد استعانت مؤلفة الكتاب بليس إريغاري لتوضيح كيف أن أفكار نيتشه هذه -ويا للمفارقة!- أُنعت الفكر النسوي المعاصر، وحملته على طرح أسئلة من قبيل: كيف نفكر في الحب من وجهة النظر الأخرى -أي وجهة نظر نسوية؟ والجواب: ببيان أن من شأن المرء ألا يعرف غيره معرفة تامة. وتعتبر إريغاري، بحسبانها مفكرة نسوية، أن الصداقة تتطلب كف الذات عن الجموح إلى اجتياح الغير، لكنها تعبر عن كبح الذات هذا بوقف اصطلاحات جديدة: الاستمتاع والاعتراف بالحدود بيني وبين السوي، وتطوير التساؤل، والشغف بالفوارق مع الصديق. وذلك على الرغم من محدودية فكرها المتمثل في التركيز على الصداقة العابرة للنوع، غير متنبهة إلى صداقة النوع (صداقة امرأة بامرأة مثلا).

## الفصل السادس:

احتجاز المرأة: تلقي تنازعي لعطايا نيتشه ودريدا تواصل المؤلفة، في هذا الفصل، فحص التلقي النسوي لفكر نيتشه وأشكال تطور هذا التلقي في زمن ما بعد الحداثة والنزعة النسوية والدراسات العابرة للجنس. وتركز على الردود النسوية على كتاب دريدا الفاضل -مهلمات: أساليب نيتشه- الذي أول فيه صورة المرأة تأويلا، بحيث جعلها كناية عن المرأة: ووجه الشبه بينهما التقلب. وقد وقفت الباحثة على محدودية كتابات نيتشه في المرأة، رغم وجهة الكناية. وأظهرت كيف أن ثمة وجهين لنييتشه:

أ- وجه نيتشه العاشق الذكوري، ومحاولته تجاوز ذكوريته نحو تصور عشق أنثوي.

ب- وجه نيتشه صديق القارئ الدافع به الرد... وكلا الوجهين

الصداقة بين هذين المفكرين. والذي تنتهي إليه أن أحد مفاتيح الفوارق يكمن في تصور الرجلين المختلف لما الذي يعنيه انفتاح الشخص وإزهاره وتفثته. وهي تحضر فيما خلف ما تسميه «تفاهماتهما السطحية»، المتمثلة في أن كليهما يرى أن حب النفس نافع للصداقة وليس مهددا لها، وفي أن نيتشه كان يقدر الحكمة الإغريقية أيما تقدير، وكان يعتد بفكرتها عن الصداقة التي تقتضي فكرة تفتت الشخص وإزهاره نحو غاية عليا، وذلك بما يحدث توافقا بين بعض ملامح تصورات كل من نيتشه وأرسطو للصداقة. على أنه خلف سطح التآلف ثمة عمق التخالف: ذلك أن نيتشه رأى أن الفضيلة جود يفيض عن إرادة القوة التي تحكم الإنسان. وبناء على هذا التصور للفائض -الجود- تصور هو «أخلاقيات الصداقة». ولئن كان الحكيمان قد اعتبرا أن سخاوة حب النفس تؤسس للصداقة، على عكس ما قد يعتقد، فإن الإنسان القوي الساخي، عند نيتشه، والرجل العظيم الطبع، عند أرسطو، كلاهما يجد صعوبة في إيجاد أصدقاء. لكن الباحثة ترصد بعض أنحاء التخالف في تصور الرجلين بين الفضيلة الفردية، عند أرسطو، والصداقة الجودية، عند نيتشه. إذ لئن أعلن أرسطو أن: «لا أحد يختار أن يحيا في استغناء عن كسب الأصدقاء، حتى وإن هو كسب كل الخيرات الأخرى»، ولئن شدد نيتشه على أهمية الصداقة في ازدهار الإنسان وصيرورته، فإنهما تخالفا في تصور البغية من ذلك. ذلك أن الرجل العظيم الطبع، عند أرسطو، يحتاج إلى من يصغي إليه ويحترمه، إذ هو مندور إلى نهاية مأساوية في سعيه، قبل كل شيء، إلى تحقيق ما يعتبره أعلى شأن في حياته؛ هذا بينما الصعوبة التي يواجهها ذو الجود غير هذه: يحتاج إلى الأصدقاء لكي يفيض عليهم من حكمته التي استملها من استقوائه، ومن دون هؤلاء تبقى حياته بلا جذوة وبلا جدوى. فهو يحتاج إلى كيف يبث عطايه إلى الأغيار، وأن يحيي فيهم جذوة المعرفة، مثلا، بينما عند أرسطو الحقيقة ترتبط بالمعرفة الكاملة، بالتحصيل، ولا تحتاج إلى توصيل.

## الفصل الخامس

النساء والحب واضطرابات النوع في الصداقة بين نيتشه وإريغاري

بعد أن عقدت الباحثة الفصل السابق للمقارنة بين أرسطو وأحد أبرز أسلافه -أرسطو- عادت إلى عقد المقارنة بينه وبين إحدى أهم أخلافه الفيلسوف والمحللة النفسية واللسانية والنسائية الفرنسية ليس إريغاري (1930-). هذا مع تقدم العلم أن زمننا هذا شهد العديد من المحاولات لتقويم «عوجاج تاريخ الفلسفة الذكوري» بإحداث قراءة جديدة «نسوية» لتاريخ الفلسفة. وما كانت هذه المحاولة ببدع من ذلك. إذ يفحص هذا الفصل كتابات نيتشه في الحب والنساء ودور الجنسين، ويستقصي علاقة كل ذلك بالصداقة عنده. يدعي نيتشه أن من الدواعي المتحكمة في الحب طغيانيته وتملكيته، وأن الحب نازع أناني يسعى إلى تملك الغير، بينما الصداقة تؤدي إلى «تسامي» هذا النازع نحو غاية مشتركة، وأن الثقافة هي ما يهدب نزوع الحب هذا فيتبدى للنظر نزوعا متساميا رائعا، كما يرى أن اختلاف النوعين -الذكر والأنثى- إنما هو